الجزء الخامس والسادس المجلد السابع عشر

مجلة المجمع العلمي العربي

أيار وحزيران ١٩٤٢ جمادى الأولى وجمادى الآخرة ١٣٦١

حكمة حكيم عربي (١)

ما كانت الرحلة في طلب العلم أيام استبحار العمران في الديار الاسلامية بأقل من تنقل العلماء اليوم في الغرب لاتمام الثقافة والبحث . واذا سهل اليوم على ابن هذا العصر التنقل من قطر الى قطر بل من قارة الى قارة فقد كانت المواصلات في القديم من الصعوبة بمكان ، على محاولة أهل تلك العصور تسهيلها .

و كانت حواضر العلم في الاسلام لا تقل شأناً عن حواضر العلم في الغرب لعهدنا ، ويزيد بلاد الاسلام رونقاً كثرة العواصم العلمية ، فاذا كانت البرتقال تفاخر بقلمرية واسبانيا بصلمنكة وفرنسا بباريز وبريطانيا باكسفورد وكمبردج وهولاندة بليدن والمانيا بليبسيك وايطاليا ببولون ، عادةً لها حواضر العلم فيها ، فان المملكة الاسلامية كانت تفاخر بعواصم كثيرة كل واحدة في العلم ليست دون الحواضر الكبرى . فقرطبة وطليطلة وغرناطة وافريقية والفسطاط ودمشق وبغداد ونيسابور والري وسمرقند وغزنة وعشرات غيرها من كبار المدن كانت مفخرة من المفاخر بما قام فيها من دور علم و كثرة دارسين ومدرسين ، وخزائن كتب . وبينا كنت تجد العالم المحدث من ابناء الاندلس في الغرب يقصد الى خراسان في الشرق ليتلقى حديثاً ويصل سنداً عالياً بسنده كنت تجد ابن السند يسافر الى ما وراء النهر لا يحسب للمساوف التي يقطعها حساباً ، ولا للايام التي يصرفها في سبيل اقتباس العلم قيمة .

(١) حديث للأستاذ محمد كرد علي ألقي باسمه في راديو فلسطين بالقدس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نبغ في دمشق في القرن الثاني حكيم فيلسوف قالوا انه ممن ادرك الاتباع وكلامه مستفاد في الحكمة اسمه صالح بن جناح اللخمي فرحل الى نيسابور ، ولا يعلم لأي غاية ، وهناك في عاصمة خراسان أخذ عنه الحكمة عالم الاسلام عمرو بن بحر الجاحظ . عربيّ يأخذ الفلسفة عن عربيّ في أرض معما قيل فيها فهي فارسية ، ذلك لأن الاسلام قضى على العنجهية الجنسية ولم يبق ذكراً لحمية الجاهلية وتعصب الشعوبية .

نبغ هذا الحكيم العظيم في زمن لم يتم فيه نقل حكمة القدماء الى اللسان العربي ، وما أخذ على ما يظهر الا عن حكمة الاسلام والعرب ، وما امتزجت ثقافته الا بقليل من ثقافة الامم التي كانت قبل الاسلام كالروم والفرس والهند والسريان والكلدان . تبين ذلك من كلمات أثرت عنه ومنها كتاب (الادب والمروءة) الذي ظفر به العلامة الشيخ طاهر الجزائري ونشره بعد نحو اثني عشر قرناً مضت على تأليفه . وتتجلى الرشاقة والسلاسة في كلام صالح وكأن انشاءه انشاء رجل من أهل القرون التالية يكتب ليفهم وليعلّم ، ويبسط كلامه حتى تحصل منه فائدة يتوقعها في انارة عقول العوام والخواص .

استمع اليه يقول لابنه : يا بني اذا مرّ بك يوم وليلة قد سلم فيهما دينك وجسمك ومالك فأكثر الشكر لله تعالى ، فكم من مسلوب دينه ، ومنزوع ملكه ، ومهتوك ستره ، ومقصوم ظهره ، في ذلك اليوم وانت في عافية وفيه يقول :

لو أنني أعطيت سؤلي لما سألت الا العفو والعافية
فكم فتى قد بات في نعمة فسلّ منها الليلة الثانية

وفيه اشارة الى حديث ابي بكر رضي الله عنه : سلوا الله العفو والعافية والمعافاة ، والمعافاة هي ان يعافيك الله من الناس ويعافيهم منك اي يغنيك عنهم ويغنيهم عنك ويصرف أذاهم عنك وأذاك عنهم .

وقال : اعلم ان من الناس من يجهل اذا حلمت عنه ، ويحلم اذا جهلت عليه ، ويحسن اذا أسأت به ، ويسيء اذا أحسنت اليه ، وينصفك اذا ظلمته ، ويظلمك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اذا انصفته ، فمن كان هذا خلقه فلا بدَّ من خلق ينصفك من خلقه ثم قحة تنصف من قحته ، وجهالة تقدع من جهالته . والا أذلك ، لأن بعض الحلم اذعان ، وقد ذل من ليس له سفيه يعضده ، وضل من ليس له حكيم يرشده . وهذا مقتبس من روح الشرع .

وقال : اعتبر بما لم تره من الأشياء بما قد رأيته ، وما لم تسمعه بما قد سمعته ، وما لم يصبك بما أصابك ، وما بقي من عمرك بما قد مضى ، وما لم يَبلَ منك بما قد بَلي .

وقال : اذا طلب رجلان أمراً ظفر به اعظمهما مروءة . وقال : اصل المروءة الحزم وثمرها الظفر .

يقول ابن عساكر : ان صالح بن جناح كان عديم نظير القول في المواعظ والأدب ، وهو القائل :

الا انما الانسان غمد لقلبه ولا خير في غمد اذا لم يكن نصلُ
وان تجمع الآفات فالبخل شرها وشرٌ من البخل المواعيد والمطل
ولا خير في وعد اذا كان كاذباً ولا خير في قول اذا لم يكن فعل

وكان صالح شاعراً مجيداً وقف شعره على بث الحكمة كما وقف نثره ، وأنشد له الجاحظ

تعلم اذا ما كنت لست بعالم فما العلم الا عند أهل التعلم
تعلم فان العلم أزين للفتى من الحلة الحسناء عند التكلم
ولا خير فيمن راح ليس بعالم بصير بما يأتي ولا متعلم

وعرف المروءة تعريفاً آخر فقال : اعلم ان العرب قد تجعل للشيء الواحد اسماء وتسمي بالشيء الواحد اشياء ، فاذا سنح لك ذكر شيء فاذكره بأحسن اسمائه فان ذلك من المروءة ، وانما المرء بمروءته ، فالمروءة اجتناب الرجل ما يشينه ، واجتناؤه ما يزينه ، وانه لا مروءة لمن لا أدب له ، ولا ادب لمن لا عقل له ، ولا عقل لمن ظن ان في عقله ما يغنيه ويكفيه عن غيره . وشتان بين عقل وافر معه خمسون عقلاً كلها وافر مثله وأوفر منه ، ومن عقل وافر لا قادة معه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال فيمن فعل أمراً لا يحسن ان يحتال له : اعلم ان من قاتل بغير عدة ، او خاصم بغير حجة ، او صارع بغير قوة فهو الذي صرع نفسه وخصم نفسه وقتل نفسه ، فان ابتليت بقتال احد او مخاصمته او مصارعته فأحسن الاعداد له ، واعرف مع ذلك عدته وأبصر حجته ، واخبر قوته كما يخبر قوتك وحجتك وعدتك ، فان رأيت تقدماً والا كان التأخر قبل التقدم ، خيراً من التندم بعد التقدم . وفي ذلك أقول شعراً :

اذا ما أردت الأمر فاعرفه كله وقسه قياس الثوب قبل التقدم

لعلك تنجو سالماً من ندامة فلا خير في أمر أتى بالتندم

وان من الناس من يرزق حجة او عدة او قوة فتكون عدته هي التي تقتله ، وقوته هي التي تصرعه ، وحجته هي التي تخصمه ، وذلك انه ربما أدلّ فقاتل ، قبل ان يعلم أهو اعدّ ام الذي يقاتله ، وكذلك في الذي يخاصمه ويصارعه ، فاذا هو قد قتل او صرع او خصم ، فلم ينفعه جودة عدته ، ولا قوة حجته ، حين أتى الامر من غير جهته وفي ذلك اقول :

اذا ما أتيت الامر من غير وجهه تصعب حتى لا ترى منه مرتقا

فان الذي يصطاد بالفخ ان عتا على الفخ كان الفخ اعتى وأضيقا

وقال في معرفة الاخوان : انك لن تعرف اخاك حق المعرفة ، ولن تخبره حق الخبرة ، ولن تجربه حق التجربة ، وان كنتما في دار واحدة ، حتى تسافر معه ، او تعامله بالدينار والدرهم ، او تقع في شدة ، او تحتاج اليه في مهمة ، فاذا بلوته في هذه الاشياء فرضيته ، فانظر اذا كان اكبر منك فاتخذه اباً ، وان كان اصغر منك فاتخذه ابناً ، وان كان مثلك فاتخذه أخاً ، وكن به اوثق منك بنفسك في بعض المواطن .

وقال : كن من الكريم على حذر ان اهنته ، ومن اللئيم ان اكرمته ، ومن العاقل ان احرجته ، ومن الاحمق ان مازحته ، ومن الفاجر ان عاشرته ، ولا تدلّ على من لايحتمل ادلالك ، ولا تقبل على من لا يحب اقبالك ، وكن حذراً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كأنك غر ، وكن ذاكراً كأنك ناس ، والزم الصمت الى ان يلزمك التكلم ، فما اكثر من يندم اذا نطق ، واقل من يندم اذا لم ينطق ، واذا ابتليت فعند ذلك تعرف جودة منطقك ، وقلة زللك ، وسعة عفوك ، وقلة حيلتك ، ومنفعة قوتك ، وحسن تخلصك .

واعلم ان بعض القول اغمض من بعض ، وبعضه ابين من بعض ، وبعضه اخشن من بعض ، وبعضه الين من بعض ، وان كان واحداً ، فان الكلمة اللينة لتلين من القلوب ما هو اخشن من الحديد ، وان الكلمة الخشنة لتخشن من القلوب ما هو الين من الحرير ، وان اعظم الناس بلاء وادومهم عناء واطولهم شقاء ، من ابتلي بلسان مطلق وفؤاد مطبق ، فهو لا يحسن ان ينطق ، ولا يقدر ان يسكت ، واعلم ان ليس يحسن ان تجيب من لا يسألك ، ولا تسأل من لا يجيبك .

* * *

وقال في تضيف الطعام : اذا كنت ممن يؤكل طعامه ، وتحضر مائدته ، ويؤكل معه ، فليكن الذي يتولى صنعة طعامك من ألب الناس في عمله ، وانظفهم في يديه ، ولا تدع اعلامه ان احسن ، ولا انذاره ان اساء ، فان تعتبك عليه خير من تعتب الناس عليك .

واعلم ان لكل شيء غاية ، وان غاية الاستنقاء التنظيف في الاستنجاء ، والاكثار من الماء حتى يستوي اليدان والريح والمنظر ، فانه لا طيبَ اطيب من الماء ، ولو انه المسك وما أشبهه من الاشياء ، وانما يستدل على نظافة الرجل بنقاء اثوابه ، وانما يكون القذر في الحمق من الرجال والنساء ، وبه يستدل على بلادتهم .

وقال في العقل والادب : اعلم ان العقل امير وان الادب وزير ، فان لم يكن وزير ضعف الامير ، وان لم يكن أمير بطل الوزير وانما مثل العقل والادب كمثل الصيقل والسيف ، فان الصيقل اذا أُعطي السيف اخذه فصقله ، فعاد جمالاً ومالاً وعضداً يعتمد عليه ويُلتجأ اليه ، فالصيقل الادب والسيف العقل ، فاذا وجد الادب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عقلاً نفقه ووفقه وقواه وسدده كما يصنع الصيقل بالسيف ، واذا لم يجد عقلاً لم يعمل شيئًا لانه لا يصلح الا ماوجد ، وان من السيوف لما يصقل ويسقى ويخدم ثم يباع بأدنى ثمن ، ومنها مايباع بزنته درًا وزبرجدا ، وذلك على نحو الحديد وجودته او رداءته . وكذلك الرجلان يتأدبان بأدب واحد ، ثم يكون احدهما انفذ من الآخر اضعافاً مضاعفة ، وانما ذلك على قدر العقل وقوته في الاصل .

* * *

وقال في الحكمة : اما ما يسمع من كثير من الحكمة فان أوله شيء يخطر على الافئدة اذا خطر ، وهو اصغر من الخردلة ، وادق من الشعرة ، واوهن من البعوضة ، ثم تحركه الالسنة ، وتنبذه الافئدة ، كما يحاك البُرْد ، وكما يُمدُّ النهر ، فيعود اكثر من الكثير ، واوثق من الحديد ، واثمن من الجوهر ، واحسن من الذهب ، وانفع من كليهما ، لانه يزيد في المنطق ، ويذكي الذهن ، ويعين على الابلاغ ، ويتجمل به القائل ، ويتقلب فيه كيف يشاء ، ويختار منه ما يشاء ، فينتفع به اللطيف ، وينبل به السخيف ، ويتزيد به الكثيف ، ويتأيد به الضعيف ، ويزداد به الأبد قوة في منطقه ، وبلاغة في كتبه ، فيكون في حفظه منفعة للخطباء في خطبهم ، وللبلغاء في بلاغتهم وكتبهم ، وللكرماء في بشاشتهم ، وللشعراء في قصائدهم ، فاذا كنت ممن يؤلف حكمة ، او يضع رسالة ، او يذكر مهمة ، فلا تكمه قلبك ، ولا تكره ذهنك ، فانه اذا اكره كلّ ووقف ، ولكن ان كنت في شيء من ذلك فاستعن بالتفرغ منه على التفرغ له ، والتأخر عنه على التقدم فيه ، فان الذهن يجم كما يجم البئر ، ويصفو كما يصفو الماء .

وقال في المداراة : اذا هبطت بلداً أهلها على غير ما تعرف ، وانت على غير ما يعرفون ، فالزم كثيراً من المداراة ، فما اكثر من دارى ولم يسلم ، فكيف بمن لم يكن منه مداراة ، وفي ذلك اقول شعراً :

ياذا الذي اصبح لا والداً له على الارض ولا والدة
قد مات من قبلها آدم فأي نفس بعده خالدة
ان جئت ارضاً اهلها كلهم عور فغمض عينك الواحدة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال في التفاضل : لا تقل فلان أغنى مني ، وانا احزم منه ، فانه لو جمع العقل والشدة والشجاعة والمال واشباه ذلك لقوم وبقي قوم لا شيء لهم لهلكوا ، ولكن الله عز وجل قال : (أهم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) فأوتي بعضهم عقلاً ، وبعضهم مالاً مع أشياء مما يكون فيه صلاحهم وبه معايشهم ، ثم احوج بعضهم الى بعض فعاشوا ، وانما مثل الرجل ورزقه ، ومثل عقله وأدبه ومروءته وحكمه كمثل الرامي ورميته ، فلا بد للرامي من سهم ، ولا بد لسهمه من قوس ، ولا بد لقوسه من وتر ، ولا بد لجميع ذلك من قدر يبلغ به ما رشق ، ويصيب به ما بلغ ، ويجوز به ما أصاب والا فلا شيء . فالرامي الرجل والرمية الرزق ، ولا يجمع بينهما عقل ولا عز ، ولا شيء من ذلك الا بقدر .

وقال في النهي عن مجالسة أهل الاهواء والبدع ومحادثتهم : اما هذه الاهواء فاني لم ار أحداً ازداد فيها بصيرة الا ازداد فيها عمىً ، لان امر الله اعز من ان تلحقه العقول ، ولم أرَ اثنين تكلما فيه الا رأيت لكل واحد منهما حجة لا يقدر صاحبه على دفعها الا بالشبهة والمغالطة واما النصيحة فلا ، ومن غالط في هذا او مثله فانما يغالط نفسه ، وعليها يُخَلِّط ، واياها يخدع ، او اراد ان يخادع ربه والله اعز من ان يخدع .

وقال : اذا قيل لك اي شيء اطول فقل الكلام ، واذا قيل لك اي شيء اقصر فقل الكلام ، لان الكلمة الواحدة قد تكون جواباً لألف كلمة ، وقد يكون جوابها الف كلمة واكثر . ولن تدرك الكلام حتى تذره ، ولن تذره حتى تحذره ، وفي القول خطأ كثير ، وبعضه صواب ، وان الصمت منه لأصوب فاترك منه مالا تنتفع بأخذه . وخذ منه مالا تقدر على تركه ، واسجن لسانك كما تسجن عدوك ، واحذره كما تحذر غائلته .

وقال في الحاسدين : اعلم انك لن ترقى من الخير درجة ، ولن تبلغ منه مرتبة ، ولن تنزل منه منزلاً الا وجدت فيه من يحسدك ، وانما الحاسد خصم فلا تجعله حكما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فانه ان حكم لن يحكم الا عليك ، وان قصد لم يقصد الا اليك ، وان دفع لم يدفع الا حقك ، وفي ذلك أقول شعراً .

ولو كنت مثل القِدح ألفيتَ قائلاً الا مـا لهذا القدح ليس بقائم
ولو كنت مثل النصل ألفيت قائلاً الا مـا لهذا النصل ليس بصارم

وهذا المعنى مأخوذ من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه « لو كان المرء اقوم من القدح لوُجد له غامز » (والقدح السهم) .

كنت أود لو اتسع المجال للقول حتى أزيدكم من حكم الحكيم اللخمي العظيم . ومع هذا فقد رأيتم نموذجاً من مواعظه وحكمته ، وتفكيره ارقى تفكير في عصره ؛ هو تفكير عربيّ بعيد النظر غير متأثر الا ببيئته ، ولا صادر الا عن شرع أمته وادب ملته . ولولا ما ترجم له مؤرخ دمشق الحافظ ابن عساكر لنسي اسمه من جريدة رجالنا ، فان ألوفاً من افضل الناس سحب الدهر عليهم ذيل النسيان ونسوا باهمال المؤرخين او مصانعةً منهم لخصوم اولئك العظماء او لأنهم ما أرادوا هم ان يذكروا بشيء وآثروا الخمول على الظهور .

يقول المنصفون من الباحثين في تاريخنا من الافرنج انه لم يعهد لأمة ان اخرجت رجالاً اكثر عدداً من رجال العرب والاسلام ، وان ما عمله الفرد منهم قد يعجز عن انتاج مثله الجماعة ، وانه من المستغرب صدور ما صدر عنهم من بحث ودرس وتفكير في زمن كان العقل البشري يغط غطيطاً كغطيط النائم ، وقد أمست الأمم بعد تراجع المدنية اليونانية والرومانية اللاتينية لا ترى النور الا من ثم الخياط ؛ وضعف فيها كل ما يدل على حياة وفكر وعلم وصناعة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net